خطبة صلاة الجمعة 30/ 8/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الزواج بين الحب والمسؤولية)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1]، قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف:10]، قال المفسرون: معنى قوله: هيئ لنا من أمرنا رشداً: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثالثة في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبةٍ منها مشكلةً اجتماعيةً أسريةً أو ماليةً أو أخلاقيةً وقع فيها عدد منا، وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: الزواج بين الحب والمسؤولية

المسألة: أحببت فتاة تدرس معي في الجامعة، واتفقنا على الزواج على سنة الله ورسوله لأننا لا نريد حراماً، عرضت الأمر على أبويّ فرفضا لأنني غير جاهز مادياً، وبعد جهد رضِيَا التعرفَ عليها وعلى أهلها، فلما ذهبا عادا برفض أكبر لفوارق بين عائلتينا –على ما يقولون– فلما ألححتُ عليهما بأنني سأعقد عليها، دعواني إلى الذهاب وحدي، وأخبراني بأنهما سيغضبان عليّ إن تم هذا العقد.

فأرجو أن ترشدوني إلى العمل الصحيح أتزوج به من أحببت وأرضي به أبوي.

الدليل الإرشادي:

في الدليل أربع فقرات: الزواج مسؤولية، معايير اختيار الزوجة، عقوبةُ المعصيةِ المعصيةُ بعدها، ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

أولا: الزواج مسؤولية:

لو أردنا اختصار الزواج بكلمة لكانت (المسؤولية)؛ لأن أعباءً جديدةً ستُلقى على عاتق كلا الزوجين، فبناء بيت جديد وأسرة جديدة يقتضيان جهوداً تأسيسية كبيرة، ولا ريب أن الجهود التأسيسية للمشاريع تفوق الجهود التشغيلية.

وتُتحدَّد مسؤولية الرجل والمرأة بأمرين اثنين لكل منهما، حدَّدهما قول الله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ . . ﴾ [النساء:34].

فمسؤولية الرجل تكمن في: القِوامة (أي الإدارة والرعاية)، والنفقة.

ومسؤولية المرأة تكمن في: طاعة الزوج، وحِفظِ البيت.

والمسؤوليات المشتركة بينهما: رعاية الأولاد، ورعاية كلٍّ منهما صاحبه والعمل على إرضائه وإسعاده.

ومن هنا فمن أراد الزواج على سنة الله ورسوله من شبابنا فإنه محتاج إلى تأمين مكان للسكن ولو متواضعاً، ودخلاً شهرياً ولو بسيطاً، وقدرة نفسية وعلمية على رعاية الزوجة وإدارة شؤون منزله.

ومن أرادت الزواج من بناتنا فإنها محتاجة إلى التدرب على طاعة الزوج من خلال طاعتها لوالديها، وخبرة علمية وعملية في حفظ الزوج والأولاد.

أخرج البخاري ومسلم قال رسول اللهﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته...».

وبناء على ما سبق، لا يُقبل من شاب من شبابنا لا يستطيع تأمين متطلبات الزواج المادية أن يقول: اعقدوا لي على فتاة على سنة الله ورسوله، فسنة الله ورسوله تمنعنا من هذا العقد، وتأمرنا بمساعدة هذا الشاب لكي يؤمن متطلبات الزواج ثم نعقد له وتأمره بأن يستعفف إلى أن يجد نكاحاً، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: 32، 33] فنحن مأمورون بمساعدتك وأنت مأمور بالعفة والصبر.

ثانياً: معايير اختيار الزوجة:

لدخول الطالبِ كليةَ الطب معاييرٌ لابد أن يحققها ليلتحق بالكلية ولا يكفي حبُّه للطب فقط.

للالتحاق بوظيفةٍ معينة معاييرٌ لابد أن يحققها طالب التوظيف ولا يكفي حبُّه للعمل فقط.

للطيار معايير لابد أن يحققها ليقود الطائرة ولا يكفي حبُّه للطيران فقط.

وهكذا سائر شؤون الحياة، وليس الزواج خارجاً عن هذا السياق، فمن طلب الزواج بفتاة فلابد أن تحقق معايير اختيار الزوجة ولا يكفي حبُّه لها فقط، ومن طلبت الزواج بشاب فلابد أن يحقق معايير اختيار الزوج ولا يكفي حبُّها له فقط.

ومعايير اختيار الزوجة عشرة، الحب واحد منها ثم تسعة أخرى تجدونها مبسوطة في الدورة التأهيلية للحياة الزوجية، فإن حققت الفتاة سبعين بالمائة من هذه المعايير كانت مناسبة للزواج وإلا فلا، ولو أحبها المرء، وقل مثل ذلك في معايير اختيار الزوج.

أما أن يطلب شاب الزواج من فتاة لأنه أحبها فقط ولو غابت معايير اختيار الزوجة، فهذا ذاهب بلا ريب نحو قضاء شهوته ثم القضاء على أسرته.

ثالثاً: عقوبةُ المعصيةِ المعصيةُ بعدها:

فالمعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها، وعقوبة السيئة السيئة بعدها، وثواب الحسنة الحسنة بعدها، ولا يزال العبد يألف المعاصي ويقترب منها حتى تأزه الشياطين إليها أزّاً، فيقول حينها: إنه لا يستطيع تركها.

وجرت العادة أن الحب بين رجل وامرأة غريبة عنه لا يحدث غالباً إلا بعد كلام فيه خضوع، ونظرٍ فيه تشهي، وابتساماتٍ فيها تودد، وإعجابات فيها تقرب، ومواعيد فيها ترقب، ولقاءات فيها أماني.

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامُ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

ومعلوم لديكم حرمة إطلاق البصر بين الرجال والنساء من غير المحارم ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ...﴾ [النور: 30، 31] وحرمة خضوع المرأة بالقول أمام الرجال ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32] وحرمة الخلوة بالمرأة الغريبة «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**» [الترمذي].

فالغالب على من علق قلبه بفتاة أنه أطلق بصره، فجرَّت هذه المعصية أختَها، فخضعت له الفتاة بالقول، فجرَّت هاتان ثالثة فالتقيا من غير حاجة، وربما تمادت المعصية فجرَّت ما هو أكبر من ذلك، وإلا فكيف يعلق القلب ويحب لو لم ير ويسمع، ولو لم يخالط ويباسط!

فالمتوقع ممن علق قلبه بفتاة أن يرجع إلى نفسه بالتوبة فيتركَ تلك المعاصي، ثم بعد هذا إن كان مؤهّلاً للزواج خطبَها كما يخطب الأبرار ثم تزوجها، وليس المأمول منه أن يضغط على أهله أنه سيعقد عليها ولو لم يملك أهبة الزواج وإن لم يوافقوه.

رابعاً: ما كل ما يتمنى المرء يدركه:

مراراً ما أحب المرء فينا أشياء وتمناها ولم يستطع الحصول عليها، فليس كل محبوب يُنال، بهذا جرت الأقدار، ولست أعلم أحداً إلا فاته بعضُ ما تمناه، فليعلم من فاته محبوبُه أنه ليس بِدعاً من الرجال وليست بِدعاً من النساء.

على أني أدعو الآباء إلى مساعدة أبنائهم قدر الإمكان وعدم التشديد عليهم في ذا الأمر، بعد أن وقع ما وقع، فزوجة لولدك بالحلال خير من لقائه معها في درب الضلال، والفروق بين العائلات ما ينبغي أن تصدك عن عون ولدك في زواجه، إن كانت الفتاة محققة نسبة مقبولة من معايير اختيار الزوجة.

وقديماً قالوا: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول لصاحب المسألة وأمثاله، لقد أخطأت فيما مضى في تواصلك مع هذه الفتاة، فلزمتك التوبة وتركُ ذلك، ثم عد إلى والديك فأقنعهما فيما ترى أو ليقنعاك، وأرى أن الفتاة إن كانت تملك معايير الزواج فستستطيع إقناعَهما وتتزوجا، وإن لم تملك فسيقنعاك، ويمكن الاستعانة بجدك أو عمك أو خالك أو بوجيه في معاونتك في إقناعهما – إن كانت مناسبة–.

وأقول لوالد هذا الشاب وأمثاله ساعد ولدك في زواجه إن كانت الفتاة مقبولة ولو لم تكن كما تأمل له، فإنه لم يرُ للمتحابَيْن مثلُ التزويج. والله أعلم.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول اللهﷺ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

والحمد لله رب العالمين